السورة الحادية عشرة

الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

الآن، وبعد أن انتهينا من دراسة عشر سورٍ قصيرةٍ من القرآن الكريم، بعد سورةٍ سبقتها متوسّطة الطول، يحقّ لي أن أسأل القرّاء: هل بدأتم تتحسّسون في داخلكم قدرةً جديدةً على قراءة القرآن الكريم بصورةٍ مختلفة، مستفيدين من المنهج الذي درسنا به تلك السوَر؟

صحيحٌ أنّها كانت، إذا استثنينا (فاطر)، سوَراً قصيرةً جداً، بل هي الأقصر بين سور القرآن الكريم، ولكن هل تجدونها كافيةً لتمهيد الطريق أمامكم لاكتشاف المواقع التجديديّة في السور الأخرى، أو بعض هذه المواقع على الأقلّ؟

طبعاً لن أتوقّع منكم أن تكملوا هذه الدراسة عنّي، على الأقلّ في هذه المرحلة المتقدّمة منها، ولكنّني أطمح إلى أن يكون كثيرون منكم قد غدَوا قادرين على استباق حديثي في عديدٍ من المواقع، والنطق بأحكامهم قبل أن أنطق أنا بها.

حاولوا ذلك معي في هذه السورة، واكتشفوا مدى ما اكتسبتم من قدرةٍ على الاكتشاف في هذا السبيل.

أيّ الألفاظ مثلاً تتوقّعون أن تعثروا عليه بين ألفاظ سورة (الفيل)، مّما تظنّون أن العرب لم يكونوا يعرفونه قبل الإسلام، أو لم يعرفوه على الأقلّ بمعناه القرآنيّ الجديد؟

حسناً، لعلّ بعضكم قد بدأ يردّد الآن فيما بينه وبين نفسه بعض هذه الألفاظ. إنّنا سنعثر في هذه السورة التي لا يزيد عدد ألفاظها عن ٢٣ لفظاً على خمسة ألفاظٍ أو مصطلحاتٍ جديدة، إضافةً إلى ٢٢ موقعاً جديداً آخر تتوزّع بين الصيغ والعلاقات اللغويّة، والسبائك القرآنيّة، والمواقع المنفتحة، ثمّ جوامع الكلِم.

وكالعادة في باقي السوَر، تؤكّد هذه السورة شخصيّتها اللغويّة من خلال لفظين لا يتكرّران مرّةً أخرى في القرآن: (تضليل، أبابيل)، وكذلك تعبيراتها المتفرّدة الخمسة التي اقتصرت عليها وحدها دون باقي السوَر: ﴿أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ﴾، ﴿كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾، ﴿عَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- تضليل:

وجدتُ هذا اللفظ مرةً واحدةً في الشعر الجاهليّ وذلك في بيت الطفيل الغنويّ (ت١٣ ق.هـ):

إنْ تُمْسِ قد سَمِعَتْ قِيلَ الوُشاةِ بنا ... وكلُّ ما نطقَ الواشون تضليلُ

ومن الواضح اختلاف الاستعمال القرآنيّ عن الاستعمال الشعريّ. فاللفظ في البيت مصدرٌ، أي فيه معنى الحدَث، وهو التمويه والتزييف وإثارة الشّكوك، ولكنّه في الآية اسمٌ أو صفةٌ بمعنى الضياع والهلاك، وهو استعمالٌ فريدٌ وجديدٌ في قاموس اللغة العربيّة، ثمّ إنّه، إلى ذلك، مختصٌّ بهذه السورة وحدها، فلا يتكرّر مرّةً أخرى في القرآن الكريم، ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

٢- طيراً:

الغريب في هذا اللفظ أنّه إذا عُرّف في القرآن بـ"ال" دلّ دائماً على الجمع، وقد تكرّر بهذه الصورة ١٦ مرّة، منها قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]
- ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٧]
- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [المُلك: ١٩]

فإذا تجرّد من "ال" دلّ على المفرد، وقد تكرّر هذا مرّتين أخريين في القرآن وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩]
- ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة: ١١٠]

فقد جاء لفظ (الطير) -المعرّف بـ"ال"- في الآيتين بمعنى الجمع أو اسم الجنس، على حين جاء اللفظ النكرة (طيراً) فيهما دالاً على المفرد، وهو طائرٌ من الطين بعث فيه عيسى -عليه السلام- الحياة بقدرة الله لإثبات نبوّته أمام من كذّبوه.

ولكنّ اللفظ في آية سورة (الفيل)، خلافاً لكلّ استعمالاته في القرآن، دلّ على الجمع رغم تنكيره وتجرّده من "ال".

أمّا اللفظ المفرد الآخر (طائر)، الذي يكثر تداوله في لغتنا، فنعثر عليه خمس مرّاتٍ في القرآن، واحدةٌ منها فقط بالمعنى المتداول في لغتنا العاديّة، وذلك في الآية:

- ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ولكنّه في المرّات الأربع الأخرى يحمل معاني مختلفةً تماماً عن الطير أو الطيور، وهي الفأل السيّء أو العقوبة أو العمل المؤدّي إلى هذه العقوبة[١] كما يتبيّن لنا من الآيات:

(١) هذه المعاني تمتّ بصلةٍ إلى اعتقاد عرب الجاهليّة بالتيمّن بالطائر السانح، وهو ما اتّجه يميناً، وبالتشاؤم من الطائر البارح، وهو ما اتّجه يساراً.

- ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النمل: ٤٧]
- ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾ [يس: ١٩]
- ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾ [الإسراء: ١٣]
- ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١]

أمّا في الشعر الجاهليّ فيختلط استعمال الألفاظ أو الحالات الأربع (طير) و (الطير) و (الطائر) و (الطيور) عند الشعراء دون تخصيص، كما في الأبيات:

ولقد شببْنـــا بالجِفـــارِ لِدارمٍ ... ناراً بها طَيـــرُ الأشائمِ يَنعَبُ

عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.ه)

أَحِنُّ إلى تلك المنـــازلِ كلّما ... غـــدا طائرٌ في أيكةٍ يترنّـــمُ

أيا صادِحاتِ الطّير إنْ مِتُّ فاندُبي ... على تُربتي بين الطيور السواجعِ

عنترة (ت٢٢ ق.ه)

إذا ما غَزَوا بالجيشِ حَلَّق فوقهمْ ... عصـــائبُ طَيرٍ تهتدي بعصائبِ

النابغة الذبياني (ت١٨ ق.ه)

٣ - أبابيل:

لفظٌ آخر اختُصّت به السورة دون باقي سور القرآن، ودون الحديث الشريف أيضاً، وإن كنّا نعثر عليه مرّةً واحدةً على الأقلّ في الشعر الجاهليّ عند زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق.ه). وتتعدّد الآراء في تأويل لفظ زهير، وهو على الأغلب بمعنى القطعان من الإبل أو الحيوان أو الطير:

وبالفوارسِ مِن ورقاءَ قد عَلِموا ... فرسانَ صِدقٍ على جُردٍ أبابيلِ

ثمّ نعثر عليه عند الشاعر المخضرم الأعشى (ت ٧ه) مقترناً بالطير هذه المرّة، حيث يقول:

طريــقٌ وجبّـــارٌ رواءٌ أصولُــهُ عليه أبابيـــلٌ من الطيــرِ تَنعَبُ

ومع ذلك أعطت التفسيراتُ المتعدّدة في وصف الطير أو الطيور التي وردت في سورة (الفيل) معنىً مميّزا للّفظ. فقد قيل إنها طيورٌ بِيض، وقيل: طيورٌ سودٌ أتت من البحر، أو من جهة البحر، وقيل إنها كانت طيراً خُضراً لها مناقير صفرٌ، أو خراطيم كخراطيم الطير، وأكفٌّ كأكفّ الكلاب، أو رؤوسٌ كرؤوس السباع، تحمل في مناقرها وأظفارها الحجارة، فكانت تختلف عليهم سرباً إثر سرب، أو يتْبع بعضُها بعضاً. وهذا كلّه يُوجّه اللفظ القرآنيّ توجيهاً يختلف بمعناه عن الاستعمال الجاهليّ.

وقيل أيضاً: إن (الأبابيل) هي الكثيرة، كالإبل المؤبَّلة، وقيل: "هي الفِرَق، فشبّه الفرقة منها بالإبّالة، وهي الحُزمة الكبيرة، ومنه قولهم: ضِغثٌ على إبّالة، فشُبّهت الفرقة الكبيرة من الطير في تضامّها بالحُزمة".

وقيل: هي المختلفة تأتي من هاهنا ومن هاهنا، وقد أتتهم من كلّ مكان، فكأنّ اللفظ جاء هنا، في نظري، بمقام الحال وليس الوصف، رغم أنّه أُلحِق بنكرةٍ (طيراً) تمنع حاليّته، تبعاً لقواعدنا الإعرابيّة، ولكنّ السياق الذي ورد فيه يرجّح تلك الحاليّة: أي أرسلها عليهم وهي مؤبّلةٌ، فلا مناص حينئذٍ من إعرابه حالاً من الطير، بغضّ النظر عن حقيقة التنكير في اللفظ (طيراً)، وبغضّ النظر عن القواعد الإعرابيّة التي تَواضعْنا عليها، وهذا مثل قولنا: أرسل جيوشاً أفواجاً أفواجاً، فلا أرى لإعراب (أفواجاً) هنا بديلاً من الحاليّة، لأنّ الحديث فيها هو عن "كيفيّة" إرسال الجيوش أكثر ممّا هو عن مجرّد وصفها.

وهكذا نجد اللفظ القرآنيّ وقد حُمّل من المعاني أكثر بكثيرٍ ممّا حَمَله اللفظ الشعريّ، وشُحن بِطاقة العمل وبعبقريّة الموقع الإعرابيّ أكثر ممّا تتحمّله أعرافنا النحويّة.

٤- سجّيل:

هذا لفظٌ قرآنيٌّ لم أعثر عليه في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف، لا بالمعنى القرآنيّ ولا بغيره. وقيل إنّه معرّبٌ من اللفظين الفارسيّين مجتمعَين: (سَنْجْ) بمعنى (حَجر) و (جِلْ) بمعنى (طين) أي: حجرٌ طينيّ، وقيل: هو الشديد، أو هو المصنوع من طينٍ مطبوخٍ كما يُطبخ الآجرّ، وقيل: طُبخت هذه الحجارة بنار جهنّم مكتوباً فيها أسماءُ من تسقط عليهم.

وقيل إنّ السجّيل هي السماء الدنيا، وهي التي أنزل الله على قوم لوط، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢]

ومن الواضح أنّه في المرّات الثلاث التي ورد بها اللفظ في القرآن ارتبط دائماً باللفظ (حجارة).

٥- عَصْف:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر لا نعثر عليه في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف. كما لا يتكرّر في القرآن الكريم إلاّ مرةً واحدةً أخرى ومعرَّفاً بال، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن: ١٢]

واللفظ في الآيتين، كما يبدو، بمعنى قشر القمح، أو الحَبّ عامّةً، أو ورقِه، وقيل: هو التِبن، أو الزرع. وجاء في البخاريّ (في شرح سورة الرحمن): "أنّه بَقْل الزرع إذا قُطع منه شيءٌ قبل أن يدرِك"[1].

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص ١٨٤٦.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- ألم ترَ

تعيدنا هذه المقدّمة التي بدأت بها السورة إلى مقدّمات السور الثلاث الأخيرة في القرآن والتي بدأت جميعاً، كما بدأت هذه السورة، بخطاب لم يُذكر فيه المخاطِبُ ولا المخاطَب: قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ، قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ، قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ .

ولو وضعتم أنفسكم مكان العربيّ الأوّل الذي سمع هذه الآيات لأدركتم أنّه لا بدّ أن يتساءل فيما بينه وبين نفسه حين سمعها: من السائل هنا ومن المسؤول؟

وهذا أسلوبٌ تعبيريٌّ اختصّ به القرآن الكريم وحده. فلو حدث أن طرح الشاعر مثل هذا التساؤل فإنّنا سنعرف بطبيعة الحال أنّ الشاعر هو الذي يسأل، وأنّ من وَجّه إليه القصيدة هو المسؤول، كقول النابغة الذبيانيّ مادحاً (ت١٨ ق.هـ):

ألــم تــرَ أنّ اللهَ أعطاكَ سُــورةً تَرى كلَّ مَلْــكٍ دونها يتذبذبُ

ولكن كيف سيواجه العربيّ الأول الموقف وهو يسمع من الرسول ﷺ هذا التساؤل الذي يؤكّد الرسول أنّه ليس هو قائلَه؟! إنّني أتخيّله يلتفت يميناً ثم شمالاً ثم يميناً ثمّ شمالاً وكأنّه يقول لنفسه متعجّباً: أين السائل؟! ومن المسؤول؟!

٢- ألم ترَ كيف:

التعبير (ألم ترَ) يتكرّر ما لا يقلّ عن ٤٥ مرّةً في الشعر الجاهليّ والشعر المخضرم (الجاهليّ/ الإسلاميّ) ومع ذلك خلت جميع الاستخدامات الشعريّة لهذا التركيب من الأداة (كيف) خلوّاً تامّاً.

ودخول اسم الاستفهام هذا على استفهام سبقه مباشرةً (ألم) أمرٌ لم يكن مألوفاً للعربيّ، بل إنّه أربك النحويّين فيما بعد.

إنّ القواعد تمنع أن يعمل في اسم الاستفهام ما جاء قبله، لأنّ له الصدارة دائماً، فلا تسمح هذه القواعد لـ (كيف) أن تكون مفعولاً للفعل الذي سبقها (ترَ)، ولهذا لم يجدوا بدّاً من أن يجعلوها مفعولاً للفعل الذي يليها (فَعَلَ) رغم أنهم يدركون ما في هذا الحلّ من مغالطةٍ ومن مخالفةٍ للمنطق، فالمطلوب هنا ليس رؤيةَ الفعل نفسِه وإنما كيفيّة حدوث هذا الفعل، وإلاّ لكانت الجملة:

ألم تر فِعْلَ ربّك

مستغنيةً بذلك عن (كيف) التي لن يعود هناك في تلك الحال ضرورةٌ لوجودها.

ورغم خلوّ الشعر الجاهليّ والمخضرم تماماً من هذا التركيب، وكذلك الحديث الشريف، فإنّه يتكرّر في القرآن الكريم ٦ مرّات.

٣- أصحاب الفيل:

كانت قصّة الفيل وأبرهة الحبشيّ جدّ معروفةٍ للعرب قبل الإسلام، وبتفاصيل كثيرةٍ لم تُذكر في القرآن الكريم، منها أنّ الرسول ﷺ وُلد في عام الفيل، على معظم الأقوال، ومنها أنّ عائشة رضي الله عنها قالت: "لقد رأيتُ قائدَ الفيل وسائسَه أعميين مُقعدين يستطعمان بمكّة"[1]. ومنها أنّ أوّل ما رُئيَت الحَصْبة والجُدَريّ بأرض العرب كان في عام الفيل؛ إذ كان ما أصاب أصحابَ الفيل من تلك الحجارة أشبه بذلك المرض.

رغم كلّ ذلك لا نجد مصطلح (أصحاب الفيل) في الشعر الجاهليّ أو المخضرم، كما لا نجده في القرآن الكريم إلاّ في هذه السورة.

---

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين. **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت والقاهرة: دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م، ج١، ص١٢٥.

opelkan.com

٤- ألم يجعل:

عرفنا كيف تحوّل فقدان الرابط اللغويّ، الذي يربط الجملة عادةً بما قبلها، إلى ظاهرةٍ لغويّةٍ في القرآن الكريم. وتكاد لا تخلو سورةٌ من السور التي درسناها حتى الآن من حالةٍ أو أكثر من الحالات التي تمثّل هذه الظاهرة.

لقد استغنت الآية هنا عن أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بما قبلها، كالواو أو الفاء، واستعاضت عنه بتأكيد الاستفهام (ألم) الذي سبق أن افتُتحت به الآية قبلها. ولو اتّبعنا أعرافنا اللغويّة في التعبير لقلنا:

فجعل كيدهم، أو:

فقد جعل، أو:

حين جعل...

٥- في تضليل:

أثبتنا قبل قليلٍ تفرّد القرآن الكريم باستعمال اللفظ (تضليل) بالمعنى الجديد الذي أعطي له. وما نريد إثباته هنا هو تفرّد القرآن أيضاً بالتركيب (في تضليل) أو بتعبيرٍ آخر: تفرّده بتعدية الفعل (يجعل) إلى الاسم (تضليل) باستخدام حرف الجرّ (في) بدلاً من أن يتعدّى إليه مباشرةً، فيكون مثلاً، لو أردنا الالتزام بتقاليدنا اللغويّة، شيئاً من هذا القبيل:

يجعل كيدَهم تضليلاً، أو:

يجعل كيدهم ضالاً

٦- يجعل كيدهم في تضليل:

لأول مرّةٍ، ولآخر مرّة، يعرف قاموس البيان العربيّ هذا التعبير لوصفِ موقفٍ يوميٍّ نواجهه باستمرار ولكنّنا نعبّر عنه بأسلوبٍ آخر، فنقول:

يُحبط مؤامرتهم، أو:

يُجهض محاولتهم، أو:

يُفشل خططهم، أو:

يبدّد مساعيهم..

لقد خلا التراث العربيّ الجاهليّ والإسلاميّ من هذا التعبير، وخلا منه الحديث الشريف أيضاً.

٧- أرسَلَ عليهم:

لم يتعدّ الفعل (أرسل) بحرف الجرّ (على) مطلقاً في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف، ومع ذلك فهو يتعدّى به في القرآن الكريم ٢١ مرةً، وبمعنىً مختلفٍ يكتسبه الفعل من هذه التعدِية الجديدة.

ولاحظوا الفروق في معاني الفعل واستعمالاته بين الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]
- ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٢]
- ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾ [الشورى: ٤٨]
- ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام: ٦١]

فالفعل في الآيتين الأولى والثانية تعدّى بـ(على)، وهو لذلك يحمل فيهما معنى الاستعلاء والإسقاط والتغطية والشمول. وغالباً ما يحمل الفعل في القرآن،

مع هذا النوع من التعدية، معنى العذاب، وقد شمل معظم الآيات الـ ٢١ التي تعدّى فيها بـ(على) إلاّ ثلاث آياتٍ –منها آية سورة (هود)– وقد جاءت في إرسال الغيث مدراراً على المؤمنين كما نرى.

أمّا في الآية الثالثة فقد تعدّى بالباء في قوله ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ فاكتسب معنى المصاحبة والحمل والتوصيل، على حين حمل قولُه في الآية نفسها ﴿أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ﴾، وكذلك في الآية الرابعة ﴿أَرۡسَلۡنَا فِيهِم﴾، معنى الظرفيّة المكانيّة مع الدخول والانتشار، وذلك لتعدّيه بحرف الجرّ (في) فكأنه يقول:

ولقد أرسلنا في أرضهم رسُلاً منذرين يتخلّلون ديارهم وينتشرون فيهم.

وقد تعمّدتُ الاستشهاد بالآيتين الخامسة والسادسة، لأوضّح أنّ وجود الحرف (على) بعد الفعل (أرسل) في القرآن لا يعني دائماً تعْدية هذا الفعل بذلك الحرف، فـ(على) في آية الشورى متعلّقٌ بـ(حفيظاً) وليس بـ(أرسلناك) أي: أرسلناك لتكون حفيظاً عليهم. وفي آية الأنعام يحتمل الوجهين، فربّما تعلّق بـ(حَفَظة) أي: حَفَظةً عليكم (وليس بـ: يرسل) وربّما تعلّق بـ(يرسل) فيكتسب الفعل بذلك معنى الاستعلاء والتغطية والشمول.

٨- حجارة من سجّيل

وهو تعبيرٌ جديدٌ آخر لم تعرفه العربيّة قبل القرآن، ولا بعده، فهذه الحجارة الغريبة المجبولة من موادّ مجهولةٍ غامضة، والتي لم يتّفق المفسّرون على طبيعتها، أمرٌ حدث في الماضي، مرةً مع قوم لوطٍ، وأخرى مع أصحاب الفيل، ثم لم يتكرّر بعد ذلك أبداً.

ويخلو الحديث الشريف من هذا التعبير أيضاً.

٩ – كعصفٍ مأكول

عرفنا أنّ للقرآن الكريم قاموسه البيانيّ الخاصّ المفعم بالصور الجديدة، والعصف المأكول إحدى هذه الصور، وقد شَبّه فيها تعالى أجسامَ القوم، وقد تقطّعت أوصالهم وفتّت أجسادَهم المرضُ الذي سبّبته حجارة السجّيل، بالتبن أو قشور الحبوب التي أكلتها الحيوانات ومضغتها، ثم لفظتها أو راثتها.

والتعبير، فضلاً عن جدّة الصورة التي يحملها، هو أيضاً تعبيرٌ جديدٌ على العربيّة، ولا نجده إلاّ في القرآن الكريم، وفي هذه السورة وحدها. ويخلو منه الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١– ألم ترَ كيف فعل ربّك:

لقد أثبتنا جدّة التركيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ وتفرُّد القرآن به حين نزل، وتكراره، مع ذلك، ٦ مرّات فيه.

ولكنّ هذه السبيكة ستستغرق فعلاً لاحقاً (فَعَلَ) ربّما كان يعمل في اسم الاستفهام الذي سبقه (أي أنّ التقدير: فَعَلَ كيف) –كما يذهب النحويّون– يتلوه فاعله المضاف إلى ضمير (ربُّك)، وهذا الضمير عائدٌ على المخاطَب غير المذكور في الآية (أنتَ)، كما رأينا، ممّا يُؤكّد لهذه السبيكة خصوصيّتها القرآنيّة وبناءها الإيقاعيّ المتميّز: (ألم تعمل كيف عمِلَ).

٢– ألم يجعل كيدَهم في تضليل:

جاء الاستفهام (ألم) في الآية الأولى تقريريّاً إخباريّاً تذكيريّاً أكثر منه تساؤليّاً طلبيّاً إنشائيّاً، كعادة الاستفهام في القرآن غالباً، وهو هكذا في هذه الآية أيضاً، فرغم التقريريّة التي تسربل إنشائيّته، لأنّه من نوع الاستفهام التأكيديّ، أو "الاستفهام

التقريريّ" كما يسمّيه النحويّون، فإنّ المقصود في النهاية هو الإنشاء والطلب، وليس مجرّد الإخبار: انظر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وانظر كيف جعل كيدهم في تضليل؛ إذ لا يقتضي منّا السياق بعد سماع الآيتين أن نقول: (نعم) أو (لا).

أترون كيف اضطررنا إلى التنقّل من محطّةٍ إلى أخرى، وهي محطّاتٌ غنيّةٌ بالمعاني والإشارات، قبل العودة إلى المحطّة الأولى التي سبق أن انطلقنا منها: (الطلب أو الإنشاء)، مستفيدين طبعاً من المنعطفات الذكيّة لهذه الرحلة، وما تركته في نفوسنا من إيحاءاتٍ وأصداء.

فإذا أضفت إلى هذا طبيعةَ البناء الخاصّ للآية، وشكْلَ المفعول الثاني للفعل (يجعل) –وهذا الأخير من الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين– وقد جاء هذا المفعول شبه جملة، من ناحية، وفي صياغةٍ لم يعرفها مِن قبْلُ القاموسُ التعبيريّ العربيّ ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ من ناحيةٍ أخرى، كان هذا كافياً ليجعل من الآية سبيكةً قرآنيّةً لها خصوصيّتها وتميّزها.

٣- وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل:

إنّ تفرّد التعبير القرآنيّ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ بتعدية الفعل (أرسل) بالأداة (على)، واقتصار التركيب النحويّ الخاصّ والعجيب ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ على القرآن، بل على هذه السورة – كما رأينا – يجعل من الآية سبيكةً أخرى لها بناؤها اللغويّ والإيقاعيّ القرآنيّ المميّز.

٤- تَرميهم بحجارةٍ من سِجّيلٍ فجعلَهم

يميّز هذه السبيكة القرآنيّة أنّ الآية تبدأ بجملة حالٍ (ترميهم) وقد جاء صاحب الحال في آيةٍ سبقتها (طيراً)، ولكن ينعطف على هذه الحال جملةٌ أخرى تبدأ بها الآية التالية لها (فجعلهم)، وهذه تابعةٌ لصاحبٍ آخر مختلفٍ هو الضمير المستتر العائد على (الله) في قوله (وأرسل) في الآية التي سبقتها نفسها.

فإن كانت جملة (ترميهم) صفةً لـ(طيراً) وليست حالاً، كما يمكن أن يذهب بعضنا في إعرابها، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئاً من أمر هذا الحكم.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- كيدهم:

بإمكاننا تبصّر القيمة الانفتاحيّة لهذا اللفظ لو استبدلنا به الألفاظ المغلقة التي تعبر عن معناه الجوهريّ بشكلٍ مباشر، فكيف يمكن أن نعبّر بألفاظنا عن ذلك؟ طبعاً ليس أمامنا إلاّ ألفاظٌ مثل: غزْوَهم، حربهم، جيشهم، عدوانهم، حمْلتهم، خطّتهم، تدبيرهم..

وهكذا يسهل علينا إدراك حيويّة اللفظ القرآنيّ وغناه وتعدّد أبعاده، فإنّ الكيد يشمل كلّ هذه المعاني التي ذكرناها، مضافاً إليها النوايا السيّئة والخبث والإجرام والعدوان المبيّت، وما إلى ذلك من الظلال المعنويّة التي يتمتّع بها اللفظ في السياق القرآنيّ.

٢- في تضليل:

إنّ فرادة هذا التعبير القرآنيّ تمنحه قوّةً إيحائيّةً غير عادية، وترفعه بهذا العنصر الإيحائيّ عن مستوى أيّ تعبيرٍ آخر يمكن أن يؤدّي معناه بشكلٍ مباشر، من مثل: هزيمة، أو دمار، أو هلاك، أو إحباط، أو إفساد..

٣- طيراً أبابيل:

رأينا كيف اختلف المفسّرون حول المعنى الدقيق للّفظ (أبابيل)، وكذلك حول وصف (الطير) التي أرسلها الله على أصحاب الفيل.

ولا شكّ أنّ تعدّد احتمالات المعاني أو الأوصاف التي ذكرناها لكلٍّ من اللفظين، مع اجتماعهما معاً هنا وتقاطع هذه الاحتمالات وتلاقحها فيما

بينها، من شأنه أن يضاعف القوّة الانفتاحيّة للتعبير ويمنحه المزيد من الغنى والإيحاءات والظلال.

٤ – حجارةٍ من سِجّيل:

و(السجّيل) الذي اختلف المفسّرون أيضاً حول معناه، واقترحوا له أكثر من معنىً، يكتسب بهذه المعاني العديدة المقترحة، كما تكتسب الحجارة التي وُصفت به أو صُنعت منه، أثواباً وألواناً وغنىً لا تتمتّع بها الألفاظ أو العبارات المباشرة ذات البعد الواحد.

٥ – كعصفٍ مأكول:

وكما اختلفوا حول الأبابيل والسجّيل اختلفوا حول (العصف) فأعطوه أكثر من معنىً، كما أضفى عليه الوصفُ الغريب والجديد (مأكولٌ) أكثر من وجه، ممّا يغني إلى درجةٍ كبيرةٍ الطاقة الاحتماليّة لهذا التعبير القرآنيّ.

خامساً: جوامع الكَلِم

١– أصحاب الفيل:

لقد أخذ هذا التعبير موقعه في قاموسنا التاريخيّ والقصصيّ والدينيّ، فما أن تقول ﴿أصحاب الفيل﴾ حتى يذهب الذهن إلى تلك القصة القرآنيّة بكلّ تفاصيلها. وهكذا غدا التركيب بمثابة مصطلحٍ لغويٍّ رمزيٍّ يُجْمل تلك الحادثة الهامّة.

٢– ألم ترَ كيف فعل ربّك:

تفرّد القرآن الكريم بهذا التعبير –كما رأينا– ولكنه غدا صالحاً لترديده بعد كلّ عقابٍ ينزله الله في عبدٍ أو عبادٍ من عبيده إذا اشتدّ ظلمهم على الآخرين، أو لإطلاق صرخةَ تحذيرٍ في وجه كلّ من تحدّثه نفسه بهذا الظلم.

٣- يَجعلْ كيدَهمْ في تضليل:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر يَصلح أن نستخدمه في كثيرٍ من ممارساتنا اليوميّة. فهو خير ما نردّ به على أيّ ظالمٍ يهدّد أحدَهم بانتقاص حقٍّ من حقوقه فنقول لهذا معزّين: لا تقلق، سيجعل الله كَيدهم في تضليل. وإذا أحسسنا بمؤامرةٍ تدبَّر ضدّ أوطاننا من قبل معتدٍ أو ظالمٍ، أو بمكرٍ يدبّره لنا من أراد بنا سوءاً، دعَونا الله تعالى مبتهلين: اللهمّ اجعل كيدهمً في تضليل ..

٤- فجعلهم كعصفٍ مأكول:

فإذا تحقّقت الهزيمة، وباء العدوّ بالخسران، وعُدنا لنتحدّث عمّا تحقّق لنا من انتصارات، ووصفِ ما وقع للأعداء من دمار، قلنا: فجعلهم كعصفٍ مأكول.

openkan.com